



ملف العدد

عرف "الرَبَاط" في "صنهاجة اسراير": آيت بونصار نموذجاً

ياسين جواد: باحث في التاريخ

تطلق كلمة " الرَبَاط " في أمازيغية صنهاجة اسراير "الشلحة" على تلك العملية التي يتم بموجبها الاجتماع بين سكان المدشر أو "ثَقْبِشْت" * و الاتفاق على وضع قوانين صارمة لحماية الغلة أو المزروعات (الفواكه، الزرع...) من الاستهلاك غير المعقلن، أو من عمليات الاعتداء على المغروسات سواء تعلق الأمر بالإنسان أو الحيوان.

يعتبر نظام " الرَبَاط " بقبيلة "آيت بونصار" الصنهاجية من أقدم الأنظمة العرفية على الإطلاق بالقبيلة، فقد ظهر بها مع تنامي عدد سكان القبيلة، و مما يسجل عن عرف "الرَبَاط" أنه لا يختلف في مضمونه و قوانينه في جميع المداشر الصنهاجية بالريف، لهذا سنقتصر في بحثنا هذا بالحديث عن عرف "الرَبَاط" بمدشر " تَهْيَا يَزْم".

* - ثَقْبِشْت أو ثَقْبِش: مصطلح محلي يعني "بالشلحة" القبيلة، وهو مأخوذ عن اللغة العربية.



يقع مدشر "تْهيا يَزْم" في قبيلة "آيت بونصار" قرب مدشر "إعطارن"، في الواجهة المقابلة لجبل تدغين (2456 م). و كلمة "تْهيا يَزْم" هي كلمة أمازيغية مركبة من كلمتين: "تْهيا" أو "تْهالا" (Tahala) التي تعني عين الماء، و "يَزْم" التي تعني الأسد، ليكون بذلك معنى اسم المدشر هو "عين السبع"¹. يصل عدد المنازل بهذا المدشر 35 منزلا، يتحدث كل سكانه، الذين لا يتجاوزون 300 فردا، بأمازيغية صنهاجة اسراير "الشلحة". و تعرف المنطقة تساقطات مطرية غزيرة تتجاوز 1000 ملم سنويا، مما أدى إلى نمو غطاء نباتي كثيف و أشجار مختلفة أهمها شجرة الأرز².

و نظرا لهذه الإمكانيات المهمة، فإن تربية الماشية و زراعة الشنتى** و الذرة و صناعة القطار... كانت من بين أهم الأنشطة الاقتصادية بالمنطقة حتى نهاية الثمانينات من القرن 20، و نظرا لتنوع المزروعات من فواكه و خضروات و غيرها، فقد كانت المنطقة بحاجة إلى أعراف لتنظيم أوقات الجني و الوقوف في وجه كل نشاط من شأنه أن يؤدي لوقوع أضرار بالغلة، سواء تعلق الأمر بالسرقة أو الرعي في ملك الغير، و كذلك لحماية المغروسات من مظاهر الاستهلاك الفردي غير المعقلن، الذي قد يؤدي إلى تخريبها. من هنا نشأ نظام "الرَبَاط" الذي استند إلى مجموعة من الأعراف الشفوية الملزمة لكل أفراد القبيلة على الامتثال لها و العمل بها³.

** - الشنتى = هو نوع من "البر الأبيض" يشبه الشعير ويصل طوله أكثر من متر. أنظر أوجست موليراس مصدر سابق.



يتم إعلان بدأ وقت "الرَبَاط"، و ذلك باجتماع سكان المدشر يوم الجمعة حيث يكون جل أرباب الأسر حاضرون في المسجد، فيتم الاتفاق بعد انتهاء الصلاة على إعلان انطلاق العمل بعرف "الرَبَاط" الموسمي، و يتزامن هذا الإعلان عادة مع نهاية فصل الصيف و بداية فصل الخريف و أحيانا قبل ذلك، ليتم بعد ذلك تحديد المنطقة التي سيشملها "الرَبَاط" و اختيار الأشخاص الذين سيتولون تسيير هذه العملية، و يشترط في هؤلاء الأشخاص أن يكونوا عاقلين و كبار السن و معروفين بكفاءتهم و حسن سيرتهم⁴.

يعتبر "الرَبَاطون" من أهم الشروط الواجبة للقيام بالعملية، فهم الذين يتولون ضبط المرتكبين للمخالفات (سواء تعلق الأمر بسرقة الفواكه، أو الرعي في ملك الغير...)، و هم لا يتلقون أي أجر كيفما كان مقابل عملهم هذا لأن عملهم تطوعي. يكون كبير الرباطين عادة أكبر سنا و يختار مساعديه بموافقة "الجماعة" من شيوخ القبيلة، بعد اختيارهم له، و لا يتجاوز عددهم عادة أربعة "رباطة" و ذلك حسب حجم المدشر أو القبيلة.

يقوم هؤلاء "الرباطة" بالتنقل بين أرجاء المدشر للمراقبة و ضبط المخالفات، و في حالة ضبط شخص ما متلبسا (إما في سرقة أو أكل غلة لم تنضج بعد، أو الرعي في ملك الغير...) يتم إبلاغ لجنة "الرباطة" الذين يبلغون بدورهم الجماعة و ولي أمر مرتكب المخالفة، لأنه غالبا ما يتم ضبط الأطفال الصغار في مثل هذه الأمور، حيث يتم مطالبة ولي أمر هذا الشخص بأداء التعويض الذي يكون نقدا و يتم دفعه "للرَبَاط"⁵.



و تشمل عملية "الرباط" كما ذكرنا حتى الحيوانات (البقر و الغنم و الماعز...)، و تختلف الغرامات المالية بحسب الجنس و السن و حجم الخسارة (بالنسبة للماشية)، فإذا كانت المخالفة صغيرة يتم دفع التعويض نقدا و يكون حسب ما اتفق عليه أهل الجماعة سلفا، أما إذا كانت الخسارة كبيرة فإن الأمر يستوجب على مرتكب المخالفة الاعتذار و القسم بعدم تكرار العملية مع دفع الغرامة.

هذا نموذج مصغر للغرامات المفروضة على الأشخاص و الحيوانات خلال نهاية التسعينيات من القرن 20.

الغرامات المفروضة على الإنسان والحيوانات			
بالنسبة للحيوانات		بالنسبة للأشخاص	
البقر	الماعز و الغنم	الكبار	الصغار
أكثر من 50 درهما	50 درهما	20 درهما	10 دراهم

بعد انتهاء موسم الخريف يتم إيقاف العمل بعرف "الرباط" حتى مجيء الموسم المقبل.



إن الأموال التي يتم جمعها من عملية "الرباط" يتم تسليمها للقائم بأعمال المسجد بعد عدها من قبل "الرباط"، و ذلك لإصلاح مرافق المسجد و ترميمه و شراء متطلباته و غير ذلك...⁶ وأما فيما يخص مقدار المبالغ المالية المؤداة عن المخالفات الخاصة بـ"الرباط" فقد كانت تختلف بحسب الفترات التاريخية، و كانت تؤدي في مجملها نقدا⁷.

إن ما يمكن تأكيده هو أن هذا النظام أخذ أبا عن جد و ظل العمل به حتى حدود التسعينيات من القرن 20، هذه الفترة ستشهد بداية انتهاء و توقف العمل بهذا النظام الذي عمر لقرون طويلة. فما هي الأسباب التي أدت إلى التخلي عن هذا النظام؟

إن الحديث عن عرف "الرباط" هو حديث عن مكون من مكونات القبيلة، فهو يجسد سلطة القبيلة و الجماعة، و قدرتها على ضبط شؤون المدشر و الوقوف في وجه أي سلوك من شأنه زعزعة استقرار القبيلة و وحدتها. فهو يجسد مظهرا من مظاهر التعاون و التلاحم بين أفراد القبيلة، إذ يعزز من مكانتها و قدرة رجالها على تسيير شؤون القبيلة لضمان استمرارها. إلا أنه في الفترات الأخيرة تم التخلي عن هذا العرف نظرا لتحول حاجات القبيلة التي تخلت عن تربية الماشية و زراعة مختلف الخضروات و غرس الفواكه نتيجة التوجه نحو زراعة القنب الهندي الذي غير من ملامح القبيلة و حسن من دخل الأهالي و بالتالي لم تعد -بالنسبة إليهم- الحاجة لهذه المزروعات و لتربية الماشية مهمة ما دامت متوفرة بالأسواق، و بالتالي تم التخلي بشكل شبه نهائي عن العمل بهذا العرف.



• المراجع

- ¹ - شريف ادرداك، مونوغرافية قبيلة آيت بونصار بصنهاجة اسراير، (مقال تحت الطبع).
- 2 - الحفيظ جواد، م. س. أنظر كذلك أوجست موليراس، م. س، ص 62.
- 3 - رشيد الديني، 40 سنة، مدشر نُهْيَايْزُم، قبيلة بني بونصار، كان يشغل مهمة رياظ.
- 4 - الحفيظ جواد، م. س.
- 5 - مسعود جواد، كان يشغل مهمة رياض لسنوات طويلة، م. س.
- 6 - رشيد الديني، م. س.
- 7 - بقجا أحمد، 63 سنة، مدشر نُهْيَايْزُم، قبيلة بني بونصار، شغل مهمة رياض أيضا.